الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المفضية لضرورة اتباع المسلمين الوسطية

بقلم
د. مصطفى وجيه مصطفى
جامعة الزقازيق- جمهورية مصر العربية
mustafa_history2010@yahoo.com

مقدمة

بعد وفاة الرسول وفي آخر الخلافة الرَّاشدة في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بدأت ملامح التفرُّق والاختلاف تظهر بين بعض المنتسبين للأمَّة الإسلاميَّة، وتتخذ لها منهجًا مخالفًا لما كان عليه النَّبيُّ وأصحابه، إمَّا بإفراط وغلو ويتمثل ذلك بظهور فرقة الخوارج، أو بغلو في المخلوق وإعطائه أكثر ممَّا أعطاه الله إياه وذلك بظهور مذهب الرافضة، ثمَّ ظهرت بدعة القدَرية الذين ينفون القدَر، ودين الله وسطٌ بين الغالي والجافي وهو مذهب أهل السنَّة والجماعة، مذهب السلف الصالح أهل القرون الثَّلاثة المفضَّلة، فهم وسط بين الفِرق التي تنتسِب للإسْلام، كما أنَّ دينَهم وسط بين الأدْيان الأخرى، فوسطيَّة أهل السنَّة والجماعة إنَّما هي نابعةٌ من وسطيَّة الإسلام الذي يتَّبعونه، فكلَّما كان الشخص منقادًا لأحكام الإسلام وكان قائده الدَّليل من كتاب الله أو سنَّة رسول الله كان إلى تحقيق الوسطيَّة أقرب من غيره[1].

وتأتي وسطية أهل السنَّة والجماعة في كونهم وسط في باب أسماء الله وصفاته، بين النفاة الذين ينفون صفات الباري كلَّها أو بعضها وبين مَن يثبتها ويمثلها بصفات المخلوقين، فأهل السنَّة والجماعة يُثبتون الأسماء والصفات الواردة في كتاب الله والثابتة في سنة رسوله، بلا تمثيل ولا تكييف وينزهونَه عن مشابهة المخلوق، ولا يُعطِّلون النُّصوص أو يُحرِّفونها[2]، كما أخبر – عزَّ وجلَّ – عن نفسِه بقوله تعالى :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11]، فجمعوا أحسنَ ما عند الفريقَين من التَّنزيه والإثبات، وتركوا ما حادُوا به عن الصَّواب من التعطيل والتشبيه[3]

ويقول ابن القيم "وأهل السُّنَّة وسط في النحل، كما أنَّ أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم

[1]) انظر: يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، (1405هـ)، ص144-145؛ عمر الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلامية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1397ه، ص364؛

[2]) مطلق القراوي: المنهج الإسلامي، الوعي الإسلامي، العدد 391، ربيع الأول، (1419هـ)، ص49.

[3]) للمزيد انظر: حمد العمار: أساليب الدعوة الإسلامية، دار إشبيلية، الرياض ط3، (1418هـ)، ص189

من شجرةٍ مباركة زيتونة لا شرقيَّة ولا غربيَّة، يكاد زيتها يضيءُ ولو لم تمسَسْه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره مَن يشاء[4]

وقبل أن ندخل في موضوع البحث نطرح سؤالاً هنا هو:

ماهية الوسطية في الإسلام

الوسطية في اللغة: قال في المعجم الوسيط الصحيح:

(وسط) الشيء – (يسطه) وسطا، وسِطة: صار في وسطه ويقال: وسط القوم، ووسط المكان. فهو واسط. و – القوم، وفيهم وساطة: توسط بينهم بالحق والعدل.

(وسُط) الرجل – (يوسُط) وساطة، وسِطة: صار شريفا وحسيبا. فهو وسيط. (أوسط) القومَ: صار في وسطهم.

(توسط) فلان: أخذ الوسط بين الجيد والرديء. و – بينهم: وسط فيهم بالحق والعدل. و– الشيءَ: صار في وسطه. يقال: توسط القومَ.

(الأوسط): المعتدل من كل شيء، وأوسط الشيء: ما بين طرفيه. وهو من أوسط قومه: من خيارهم.

(الوسَط) وسط الشيء: ما بين طرفيه، وهو منه. والمعتدل من كل شيء. يقال: شيء وسط: بين الجيد والرديء. وما يكتنفه أطرافه ولو من غير تساو. والعدل. والخير: (يوصف به المفرد وغيره). وفي التنزيل العزيز: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: عدولا أو خيارا. وهو من وسط قومه: من خيارهم.

والصلاة الوسطى: العصر، لتوسطها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل، وقيل الصلاة الوسطى: الفضلى، وفسرها بعضهم بالجمعة. (ج) وُسَط.

(الوَسوط): المتوسط. وبيت من بيوت الشَّعْر أكبر من المظلة وأصغر من الخباء أو هو أصغرها. (ج) وسط.

الوُسوط: وُسوط الشمس، توسطها السماء.

(الوسيط): المتوسط بين المتخاصمين، و– المتوسط بين المتبايعين أو المتعاملين. و– المعتدل بين شيئين. وهي وسيطة. (ج) وسطاء، ويقال هو وسيط فيهم: أوسطهم نسبا وأرفعهم مجدا.

فالوسطية تأتي بمعنى: التوسط بين شيئين، وبمعنى العدل، والخيار، والأجود، والأفضل، وما بين الجيد والرديء، والمعتدل ، وبمعنى الحسب والشرف.

كما أن الوسط هو الخيار والأعلى من الشيء، والوسط من كل شيء أعدله، وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها، وأن الغلو والتقصير مذمومان. قال الزمخشري: وقيل للخيار وسط؛ لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأوساط محمية محوَّطة، ومنه قول أبي تمام:

---

[4]) ابن القيم ، بدائع الفوائد ج1ص 180

كانت هي الوسط المحمي ما اكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفًا[5].

ماهية الوسطية في الشريعة

لقد فسَّر النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – الوسطيَّةَ بالعدالة؛ فقد روى البخاري في "صحيحه" عن أبي سعيدٍ – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: «يجيءُ نوحٌ وأمَّته، فيقول الله تعالى: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمَّته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – وأمَّته، فنشهد أنَّه قد بلَّغ، وهو قوله – جلَّ ذِكرُه :– ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[6]، والوسط العدل»، ورواه الطبري[7] بلفظ" :عدولاً"، وهذا التفسير منقولٌ عن كثيرٍ من الصحابة والتابعين. ومنه الحديث: «خير الأمور أوساطها»[8]

قال الطبري في "تفسيره": "وأمَّا" الوسَط "فإنَّه في كلام العرب الخيارُ، يُقال منه: "فلان وَسَطُ الحسب في قومه"؛ أي: متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسَبِه، و"هو وَسَطٌ في قومه، وواسطٌ."...

إلى أنْ قال: وأنا أرى أنَّ" الوسط "في هذا الموضع، هو "الوسط" الذي بمعنى: الجزءُ الذي هو بين الطرفين، مثل "وسَط الدار" محرَّك الوَسط مثقله، غيرَ جائز في "سينه" التخفيف.

ونجد أنَّ الله – تعالى ذِكرُه – إنما وصفَهُم بأنهم" وسَط"؛ لتوسُّطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهُّب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هُم أهلُ تقصير فيه تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسُّط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها، وأمَّا التأويل فإنَّه جاء بأنَّ "الوسط" العدلُ، وذلك معنى الخيار؛ لأن الخيارَ من الناس عُدولهم."

وبالنظر إلى ما جاء في السُّنَّة وما أُثِرَ عن السلف وما حكاه أهل التفسير، نجد أنَّ "وسطية الأمة" تفسر بمعنيين:

الأول: العدالة والخيرية.

الثاني: الاعتدال والتوسُّط في الأمور بين الغلوِّ والجفاء، وبين التفريط والإفراط. قال تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً[9]. أي عدولاً خياراً. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾[10]. أي

---

[5]) إغاثة اللهفان ،ج1 ص182؛ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (1/99).

[6]) سورة البقرة ، آية 143

[7]) تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط2، بدون تاريخ، ج3، ص142

[8]) – البيهقي ، شعب الإيمان، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى، 1410، 5/169، رقم الحديث: 6229، وقال: " هذا مرسل"؛ وهو في السِّلسلة الضَّعيفة، مكتبة المعارف – الرياض، 8/442.

[9]) سورة البقرة ، آية 143 ؛ البخاري، كتاب التَّفسير، تفسير سورة البقرة، باب: {وكذلك جعلناكم..}، رقم الحديث: 4217

[10]) سورة القلم، آية 28

خيرهم وأعدلهم.

هذا؛ والشرع والعقل داعيان إلى التوسط والاعتدال، ففي الحديث: إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا... رواه البخاري، وفي رواية: القصد القصد تبلغوا.

والتوسط والاعتدال هو الذي يتفق مع الفطرة الإنسانية، فالإنسان خلق ضعيفًا يعتريه الفتور والكسل، وتعرض له الشواغل، ويتقلب بين قوة وضعف، وصحة ومرض، فكان الاعتدال هو المناسب له المتفق مع حاله، وإن أحس من نفسه همة عالية وقوة فجنح إلى التشدد فمرده إلى الضعف وانقطاع المسير. وهذه الأمة المسلمة أمة وسطية بكل معاني الوسط: وسط في النبوة والرسالة، فلا هي غلت في نبيها كما غلت النصارى في نبيهم، ولا هي أساءت إليهم وآذتهم وقتلتهم كما فعلت يهود. وهي وسط في الشريعة والأحكام، كما يقوله الإمام الشاطبي: الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال.

وبالجملة فهذه الأمة المسلمة وسط في الأمم بجموعها لا بجميعها، وأهل السنة والجماعة وسط في الأمة بين فرقها ونحلها المتنازعة في مسائل الدين كلها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذه الفرقة الناجية أهل السنة هم وسط في النحل كما أن ملة الإسلام وسط في الملل.

وقال أيضًا: وكذلك في سائر أبواب السنة هم وسط؛ لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان[11].

لقد كان لمصطلح الوسطية في نصوص الشريعة مجال رحب لمن أراد الوقوف على أصله ومضمونه، ولا شك أن وراء ذلك مقصداً وغاية، فالشارع الحكيم أراد من عباده أن يتصفوا بهذا الوصف ويكون لهم منهجاً ومسلكاً، ولذلك حري بنا في سياق موضوعنا هذا أن نقف على تلكم المواضع التي أشارت إلى الوسطية تصريحاً وتلميحاً في كتاب الله تعالى وسنة النبي – صلى الله عليه وسلم –.

ومما سبق يتبين أن: الوسطيَّة :هي الواقعيَّة التي تفرضُ عدم إيقاع الناس في عنتٍ ناتجٍ عن إسقاطِ واقعٍ مجلوبٍ من مكانٍ أو زمانٍ آخَرَين، ومَن لم يكن عالِمًا بأهل زمانه فهو جاهل. وجهله ليس لأنه لا يحفظُ النُّصوص؛ بل لأنه لا يعرف كيف الاستنباطُ منها لتصنيع أدوية الأمراضِ الناشئة المتجدِّدة المتغيِّرة. واستخدام علاجٍ مجرَّبٍ نجعَ مع مرضٍ ما لا يَعني بالضرورة أنَّه ناجعٌ مع مرضٍ ثان، بل هو بالضرورة مسبِّبٌ لتفاقم المرض الجديد لسببين:

●حجب المصْل المضادِّ عن البدن العليل.

[11]) ابن تيمية، مجموع الفتاوي ، ج3ص375

●وإفساد هذا البدن بما لا ينفعه – بل بما يضرُّهُ – من العقاقير[12].

الآيات القرآنية المفضية إلى ضرورة إتباع المسلمين للوسطية

القارئ لكتاب الله يجد أن كلمة وسط وردت في القرآن الكريم في إطار التصريح في خمسة مواضع:

1– قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: 143]، وقد جاء تفسير هذه الآية عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما روى ذلك البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – : قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ :﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143]. فذلك قول الله جل ذكره: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143]، والوسط العدل"[13]، وهو أحد المعاني المرادة ولكن لا يمنع من أن يكون هناك معانٍ أخرى[14].

قال الطبري في سياق تفسير هذه الآية: " وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين مثل (وسط الدار) محرّك الوسط مثقّله، غير جائز في سينه التخفيف. وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوّ فيه غلوّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه[15]. فوصفهم الله بذلك إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها[16]، وقد جرى على منواله القرطبي[17]، وابن كثير[18] ، والسعدي[19]، وابن عاشور[20]. وقال الزمخشري: "(وَسَطًا): أي: (خيارًا)، هي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء، وقيل للخيار: وسط؛ لأنَّ

---

[12])انظر: أمين الخولي، المجددون في الإسلام، نشر مكتبة الأسرة 2008م؛ علي محمد الصلاَّبي، الوسطية في القرآن الكريم، مؤسسة اقرأ للنشر – القاهرة، ط1 – 1428هـ/2007م، ص6 المقدمة

[13])أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب/ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا، رقم 4217؛ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط1: 1420هـ – 2000م، ص70.

[14]) راجع: تفسير المنار: السيد محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، ط2، دار الفكر العربي، ج2، ص4 – 6.

[15]) للمزيد راجع: عبد الحميد إبراهيم، موسوعة الوسطية العربية: الكتاب الأول "مذهب الوسطية"، دار طيبة للنشر، رقم إيداع: 8323/ 2005، ص15، 16

[16]) تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط2، بدون تاريخ، ج3، ص142

[17]) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1427هـ/2006م، ج2، ص433

[18]) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، الرياض– دار السلام، دمشق– دار الفيحاء، ط2، 1418هـ/1998م، ج1، ص260.

[19])تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الكويت، جمعية إحياء التراث، ط2، 1422هـ/2001م، ص72

[20]) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984م، ج2، ص17

الأطراف يتسارع إليها الخلل، والأغوار والأوساط محميَّة محوطة، ومنه قول الطائي:

كَانَتْ هِيَ الْوَسَطَ الْمَحْمِيَّ فَاكْتَنَفَتْ بِهَا الْحَوَادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ طَرَفَا

ويرى أستاذ التفسير الدكتور علي الصلابي[21] أن الوسطية التي قصدها الشارع دائرة مع عنصرين لا بد من توافرهما: الخيرية – البينية، فالجمع بين هذين العنصرين يثمر لنا الوسطية التي مدحها الله تعالى.

2- قوله تعالى :﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: 238]، قال الخلوتي الحنفي: "والصلاة الوسطى أي المتوسطة بينها على أن تكون الوسطى صفة مشبهة، أو الفضلى منها على أن تكون أفعل تفضيل تأنيث الأوسط وأوسط الشيء خيره وأعدله وهي صلاة العصر؛ لأنها بين صلاتي ليل وصلاتي نهار، ولقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب: (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً) وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار"[22] ، وقد نقل القول بكون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ابن الجوزي في تفسيره ونسبه إلى جماهير أهل العلم، وذكر منهم علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبا أيوب، وابن عمر في رواية، وسمرة بن جندب، وأبا هريرة، وابن عباس في رواية عطية، وأبا سعيد الخدري، وعائشة في رواية، وحفصة، والحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعطاء في رواية، وطاووس، والضحاك، والنخعي، وعبيد بن عمير، وزر بن حبيش، وقتادة، وأبا حنيفة، ومقاتل في آخرين[23]

3- قوله تعالى :﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ [المائدة: 89]، والمراد بالأوسط هنا على الراجح المنزلة بين منزلتين، والنصف بين طرفين، وإن كان أصل اللفظ دائراً مع الأعلى والخيار والعدل، وقد أجمع العلماء على أن الوسط بمعنى الخيار هاهنا متروك[24] على الرغم من كون سياق الآية قد جعل معنى الأوسط مغايراً لمعناها اللغوي، فإنه من جهة أخرى يؤكد ما تقدم من كون اللفظ في أصله اللغوي يدور مع العدل والخيار.

4 -قوله تعالى :﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم: 28]، والأوسط هنا بمعنى الأحسن والأرجح عقلاً ورأياً، أو الأوسط سناً، أو الأعدل والأفضل[25].

5- قوله تعالى :﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ [العاديات: 5]، والمعنى توسط جموع الأعداء.[26]

فهذه الآيات جاء فيها لفظ الوسط صريحاً، وهي كما ترى لا تخرج عن المعنى اللغوي لأصل الكلمة، وهو

---

[21]) الوسطية في القرآن الكريم، د. محمد علي الصلابي، بيروت، دار المعروفة، بدون تاريخ، ص34.

[22]) تفسير روح البيان، إسماعيل الخروتي الحنفي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ج1، ص305

[23])زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط3، 1404هـ/1984م، ج1، ص282.

[24]) أحكام القرآن، أبو بكر ابن العربي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 1423هـ/2003م، ج2، ص157.

[25])روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ج29، ص29، المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، بيروت، دار المعروفة، بدون تاريخ، ص522.

[26])السراج في غريب القرآن، د. محمد عبد العزيز الخضيري، مجلة البيان، ط1، 1429هـ/2008م، ص416.

معنى توافق عليه الشرع كذلك كما هو مقتضى السياقات القرآنية المتعلقة باللفظ المعني، إلا أن هناك نصوصاً كثيرة جاء فيها معنى الوسطية في إطار ألفاظ أخرى؛ لتدل على هذا المعنى وفق منهجية قرآنية واضحة البرهان ثابتة البنيان، والباحث لا يسعه أن يقف عند هذه النصوص بأجمعها؛ لكونها كثيرة، إلا أنه سيقف مع بعضها موضحاً ومظهراً مقاصدها ومعانيها، وسيحيل إلى غيرها من خلال التنويه عمن فصل الحديث عنها فيما رقم ورسم.

ووردت نصوص قرآنية أخرى كثيرة، وإن لم تذكر لفظ الوسط بجذره، غير أنَّها ذكرت ألفاظًا أخرى مُقاربة، أو تضمنت دلالة الوسطيَّة بسياقها.

من ذلك: قوله – تعالى –: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: 219]؛ فقد ذكر القرطبي: أنَّ هذه الآية نزلت في شأن عمرو بن الجموح، في بيان قدْر الإنفاق؛ فإنَّه لما نزلت: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: 215]، قال: كم أنفق؟ فنزلت: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾، قال القرطبي: "والعفو: ما سَهُل وتيسر وفَضُل، ولم يشُق على القلب إخراجُه، ومنه قول الشاعر:

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلاَ تَنطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

6- قوله تعالى :﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: 6، 7]، وجه دلالة الآية أنه سبحانه وصف الصراط المستقيم بأمرين: الأول أنه مستقيم، والثاني أنه غير صراط المغضوب عليهم وهم اليهود، وغير صراط النصارى، وهم أهل الغلو في الرهبانية والتعبد، حتى خرجوا عن حدود الشرع، ليس فقط في العبادة بل حتى في الاعتقاد، فإذا كان الصراط المستقيم غير صراط اليهود والنصارى، وكان صراطهم صراط غلو في الدين، دل ذلك على أن الصراط المستقيم الذي شرعه الله عز وجل صراط لا غلو فيه، فهو بين طرفين إفراط وتفريط، وهذا هو معنى الوسطية التي هي منهاج الدين الإسلامي[27]

7- والمعنى نفسه يظهر جلياً كذلك في قوله تعالى :﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: 213].

8- قوله تعالى :﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ [لقمان: 19]، قال ابن كثير: "أي امش مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين[28].

وهذه الآيات بعد بيانها يظهر بجلاء أنها تصب في إطار المنهج الوسطي الذي دل عليه القرآن الكريم، مع

---

[27] أدلة الوسطية في القرآن والسنة، د. محمد بن عمر بازمول، بحث منشور ضمن بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، ص16

[28] تفسير القرآن الكريم، ابن كثير، مرجع سابق، ج3، ص589

العلم أن الآية المركزية التي يدور معها مفهوم الوسطية هي قوله تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: 143]، دون أن يغفل الباحث التنبيه على أن القرآن الكريم كله يدعو إلى الوسطية والعدل والإنصاف وما يتعلق بذلك من مفاهيم واصطلاحات، بدليل قوله تعالى :﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: 9]، فلفظ الأقوم هنا يشير إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكاً إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضاً أو تحذيراً، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه[29]ولذلك جاء وصف الدين والشريعة والهدى بهذه اللفظ في اشتقاقات مختلفة ترجع إلى أصل واحد كما هو الحال بهذه الألفاظ: القيّمة، أقوم، قيّما

الأدلة النبوية المفضية إلى ضرورة إتباع المسلمين للوسطية

إن المتتبع لنصوص السنة النبوية يظهر له أن السنة أتت بلفظ الوسط في إطاره الصريح، نبهت عليه كذلك في سياق ألفاظ أخرى لا تخرج عن مقتضى معناه ومقصده وإن اختلفت معه في اللفظ، وفي الصفحات القادمة نأتي بنماذج من السنة النبوية ؛ كي تتبين مقاصد السنة حول هذا الموضوع.

1- من الأحاديث التي جاء فيها لفظ الوسط صريحاً قوله عليه الصلاة والسلام: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة"[30]، وقوله – صلى الله عليه وسلم –: "إذا وضع الطعام، فخذوا من حافته، وذروا وسطه، فإن البركة تنزل في وسطه"[31] فهذان حديثان جاء ذكر الوسط فيهما صريحاً ومعناه ظاهر وإن اختلف سياقه في الحديثين، فالمراد بالأوسط في الحديث الأول الأعدل والأفضل [32]فيكون موافقاً لقوله تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: 143]، أما الحديث الثاني فعلته ظاهرة المعنى حيث جاء التصريح بكون البركة تنزل في وسطه أو في ذروته وأعلاه.

2- قوله عليه الصلاة والسلام: "عليكم هدياً قاصداً عليكم هدياً قاصداً فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه"[33]وقوله – صلى الله عليه وسلم –: "إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا"[34]والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، ولا شك أن هذين الحديثين فيهما عَلَم من أعلام النبوة كما أشار إلى ذلك ابن المنير، فالشواهد الحسية أظهرت أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل المراد منع الإفراط

---

[29] الشنقيطي، أضواء البيان ، ج3ص17

[30] البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي، رقم 2637

[31] ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب النهي عن الأكل من ذروة الثريد، رقم 3277

[32] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، بيروت، دار المعرفة، 1379م، ج6، ص12.

[33] ابن خزيمة ، صحيحه، باب الأمر بالاقتصاد في صلاة التطوع، رقم 1179.

[34] البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم 39

المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته[35]

3- حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: " جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم –، يسألون عن عبادة النبي – صلى الله عليه وسلم –، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: أين نحن من النبي – صلى الله عليه وسلم –؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)"[36]

قال ابن بطال في شرح هذا الحديث: " في هذا الحديث من الفقه أن النكاح من سنن الإسلام، وأنه لا رهبانية في شريعتنا، وأن من ترك النكاح رغبة عن سنة محمد عليه السلام فهو مذموم مبتدع... وفيه الاقتداء بالأئمة في العبادة، والبحث عن أحوالهم وسيرهم في الليل والنهار، وأنه لا يجب أن يتعدى طرق الأئمة الذين وضعهم الله ليقتدى بهم في الدين والعبادة، وأنه من أراد الزيادة على سيرهم فهو مفسد، فإن الأخذ بالتوسط والقصد في العبادة أولى حتى لا يعجز عن شيء منها، ولا ينقطع دونها"[37].

وصحَّ في الحديث عن النبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – أنَّه قال: «القصدَ القصدَ تبلغوا»[38].

أي: عليكم بالقصدِ من الأمور في الأقوال والأفعال، والقصد هو الوسط بين الطرفين.

وصحَّ عنه – صلَّى الله عليه وسلَّم – أيضًا في "المسند" وغيره أنَّه قال: «عليكم هديًا قاصدًا، فإنَّه مَن يشاد الدِّين يغلبه»[39]، وصحَّحه الألباني[40].

وفي معنى هذه النُّصوص قولُ رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب – رضِي الله عنه –: "إنَّ دين الله بين الغالي والمقصر، فعليكم بالنمرقة[41] الوسطى؛ فإنَّ بها يلحق المقصر، وإليها يرجع الغالي".

وهو كلامٌ حسن عظيمُ الفائدة، قال فيه ثعلب اللغوي المشهور: "ما رُوِي في التوسُّط أحسن من قول أمير المؤمنين علي – رضِي الله عنه"، يشيرُ إلى كلامه هذا المتقدِّم[42] وكان ابن مسعود – رضِي الله عنه – يقول:

---

[35]) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج1، ص93

[36])البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم 4776

[37]) شرح صحيح البخاري، ابن بطال البكري القرطبي، الرياض، مكتبة الرشد، ط2، 1423هـ/2003م، ج7، ص159.

[38]) صحيح البخاري رقم (6463).

[39]) المسند (5/350/ 361).

[40]) صحيح الجامع (رقم 4086).

[41]) النمرقة: الوسادة

[42]) إغاثة اللهفان (1/136).

"الاقتصاد في سنَّةٍ خيرٌ من الاجتهاد في بدعة"[43].

وقال أبو سليمان الخطَّابي صاحب كتاب "العزلة"[44]

وَلا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَمْرِ وَاقْتَصِدْ كِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمُورِ ذَمِيمُ

بعض الدعوات الوسطية التي اتبعت الكتاب والسنة النبوية

لا يمكننا ونحن بصدد سرد تاريخي لبعض الدعوات التي قامت منهجيتها على الوسطية والاستقامة، إلا أن نقف على مرجع هذه الدعوات من حيث منهجيتها ومعتقدها ومسلكها وطريقتها.

والأصل الذي تستند عليه هذه الدعوات قائم على بعض الأحاديث التي تمثل منهاج النبوة في الدعوة والحق والهدى، يجمعها حديث واحد هو حديث الافتراق[45]، وهذا الحديث مشهور عند العلماء من حيث حفظه وتدوينه وجمعه وشرحه والتعليق عليه، وهو مروي من طرق متعددة وألفاظ متقاربة فيها زيادات تمثل الفيصل في أوصاف الفرقة الناجية التي تمثل منهج الوسط والاعتدال، ولا يسع الباحث الوقوف على طرق هذا الحديث والبحث فيه، فسياق هذا المطلب يحكمنا بأن نوجز القول ولا نفصل إلا بالقدر الذي يصب في مصلحة البحث، وبناء على ذلك نقرر أن حديث الافتراق رواه جمع من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – والكل متفق على أصل متنه إلا أن هناك زيادات مؤثرة تظهر أوصاف الفرقة الناجية، ولذلك سنقتصر في الأصل على رواية أبي هريرة ثم نذكر الزيادات من الروايات الأخرى، وحديث أبي هريرة أخرجه جمع من الأئمة، فقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم وابن حبان وغيرهم، ونصه أن أبا هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "افترقت اليهود على إحدى – أو ثنتين – وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى – أو ثنتين – وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة"[46]، وجاء في رواية معاوية وعوف بن مالك: "كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة"[47] وجاء في رواية عبد الله بن عمرو بن العاص: "ما أنا عليه وأصحابي"[48].

ولا شك أن مقتضى هذا الحديث برواياته المتعددة ينطبق على الجيل الأول الذي تربي في أحضان النبوة وصنع على عينها، وزكاه القرآن والسنة النبوية؛ ليكون منهجهم مسلكاً وطريقاً يقتدي به من خلفهم، كما دلت عليه النصوص القرآنية والنبوية، منها قوله تعالى :﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ

---

[43]) اللالكائي، شرح الاعتقاد (88/1).

[44]) كتاب "العزلة" ج1 ص256

[45]) راجع: الموافقات، للإمام الشاطبي، ج 2، ص 74 – 75

[46]) أبو داود، باب شرح السنة، رقم 4596، ابن ماجه، كتاب الفتن، رقم 3991، الحاكم في المستدرك، كتاب العلم، رقم 441، البيهقي، كتاب الشهادات، 20690، ابن حبان، كتاب التاريخ، رقم 6247.

[47]) أبوداود، باب شرح السنة، رقم 4597

[48]) الترمذي، كتاب الإيمان، رقم 2779

اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 100]، وقوله تعالى :﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: 137]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"[49]

ونلاحظ أن وجه الارتباط بين هذه النصوص في القرآن والسنة، وبين وصف الجيل الأول من الصحابة وأتباعهم بمنهج الوسطية والاعتدال أن الله عز وجل وصف هذه الأمة، بوصفين يستلزم أحدهما الآخر وجوداً وعدماً، الأول جاء في قوله تعالى :﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: 110]، والثاني جاء في قوله تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

فالخيرية تقتضي أن تكون الأمة متصفة بصفة الوسطية، وهو الذي يدل عليه وصف الجعل في الآية الثانية، ولذلك حين ننظر في حال أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم –، فنجدهم قد حققوا هذا الوصف، فتحققت بهم أكمل صورة يمكن أن يحققها البشر، واستطاعت أن تحفظ للإسلام قوته ومكانته، بل وأن تزيد من توسعه وانتشاره، فأضحوا أمة حاكمة مسيطرة بهديها وقرآنها، فتمثلوه منهجاً وواقعا[50]، وسار الأتباع على نهجهم إلا أن الملاحظ أن خيرية الصحابة كانت في إطار جمعي[51]، أما خيرية التابعين وأتباعهم كانت على سبيل الانفراد؛ كون كثير من البدع والمحدثات ظهرت في جيل التابعين وتابعيهم، ووصف الجيل بأكمله بالخيرية يستلزم مدح أهل البدع وما أحدثه، وهذا لا يصح، وقد جاءت آثار كثيرة تصب في هذا المعنى، ومنها ما قاله أبو حاتم الرازي: "العلم عندنا ما كان عن الله تعالى، من كتاب ناطق، ناسخ غير منسوخ، وما صحت الأخبار عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مما لا معارض له، وما جاء عن الألباء من الصحابة ما اتفقوا عليه، فإذا اختلفوا لم يخرج عن اختلافهم، فإذا خفي ذلك ولم يفهم فعن التابعين، فإذا لم يوجد عن التابعين، فعن أئمة الهدى من أتباعهم مثل: أيوب السختياني، وحماد بن زيد، وسفيان، ومالك بن أنس، والأوزاعي، والحسن بن صالح، ثم من بعد، ما لم يوجد عن أمثالهم، فعن مثل: عبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن المبارك، وعبد الله بن إدريس، ويحيى بن آدم، وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، ومن بعدهم: محمد بن إدريس الشافعي، ويزيد بن هارون، والحميدي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي، وأبي عبيد: القاسم بن سلام[52].

---

[49] البخاري، كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على جور إذا أشهد، رقم 2509؛ مسلم: كتاب فضائل الصحابة – رضي الله عنهم – باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم 2533

[50] صفة الغرباء، سلمان العودة، صنعاء، مركز الصديق العلمي، ط4، 1421هـ/2000م، ص78.

[51] انظر: كتاب الرُّوح؛ لابن القيم الجوزية، ص 250، دار الفكر، ط 1992م

[52] الفقيه والتفقه، الخطيب البغدادي، الدمام، دار ابن الجوزي، ط1، 1417هـ/1996م، ج1، ص432.

قراءة تاريخية لبيان أهمية لوسطية

لقد ناقشت الحضارات السابقة نظريتين متناقضتين، الأولى :النظرية الفردية، ومفادها: أن الإنسان حرٌّ فيما يتصرَّف ويعتقد[53]، ومصلحتُه مقدَّمة – حتى ولو تعارضت مع مصالح الآخرين – وهي نظرية أرسطو، والتي تبنتْها الرأسمالية الحالية، وآمنت بها المانوية الفارسية، والثانية :النظرية الجماعية، التي تهتم بمصلحة الجماعة – دون مراعاة للفرد وخصوصيته – وهي نظرية أفلاطون، التي تبنتْها الشيوعية، وآمنت بها المزدكية الفارسية.

وبين هاتين النظريتين جاء الإسلام؛ ليقرِّر المنهج الوسط في بناء التصور الصحيح، فلنتأمل في الحديث السابق، الذي يعيب على التفكير الانفرادي الأحادي، فلا يسافر المسلم وحده، ولا يأكل وحده، ولا يقرِّر وحده، بل يشارك الجميع، ويشاركه الجميع؛ فيكمل عملَ غيره، ويعطي الفرصة لغيره أن يكمل عمله.

إن نظرية الفردية المنتشرة في هذا الزمان قريبة من تصور قابيل؛ حين أقدم على قتل أخيه هابيل؛ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: 27 – 30]؛ فظن قابيل أن الجنة لا تتَّسع له وأخيه، فسار وفق القول السائد: "إما أن أفوز أنا وتخسر أنت، أو أخسر أنا وتفوز أنت" أمَّا أن نفوز جميعًا، فهذا غير وارد قطعًا، رغم أن جنة الله واسعة ورحمته أوسع.

روى الطبراني بسند ضعيف، من حديث ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر: «ألا أنبئكم بشراركم؟» قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله، قال:«فإن شراركم الذي ينزل وحده، ويجلدُ عبدَه، ويمنع رِفْدَه» وهنا نفهم أن الشريعة جاءت لذم النظرية الفردية مع احترامها لخصوصية الفرد، فيخرِّجُ لنا ابن ماجه بسند حسن لغيره، عن أنس رضي الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في دين الله عمر، وأصدقُهم حياءً عثمان، وأقضاهم عليٌّ بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبيٌّ بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذُ بن جبل، وأفرضهم زيدُ بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أمينًا وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». فأبو بكر يتخصَّص في الرحمة، وعمر في الهمة، وعثمان في الحياء، وعليٌّ في القضاء رضي الله عنهم جميعًا، كلٌّ في مجاله، فخالد وسعد قادةٌ في العسكر، وابن مسعود ومعاذ وابن عباس قادةٌ في العلم، وأبو

---

[53] ويقصدون أيضاً جَعْل الواقع – الصالح والفاسد – حاكمًا على الشريعة ونصوصها، أمَّا إذا تصادَم الواقع والنصوص، فإنهم يحاولون طَيَّ النصوص وَلَيِّها؛ لتخدم أغراضهم وتوفي بمقاصدهم، ولا يقصدون بفقه الواقع ما قصَده ابن قيِّم الجوزيَّة في إعلامه؛ حيث قال: "ولا يتمكَّن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحقِّ، إلاَّ بنوعين من الفَهم: أحدهما: فَهم الواقع والفقه فيه، واستنباط عِلْم حقيقة ما وقَع بالقرائن والأمارات والعلامات؛ حتى يُحيط به عِلمًا، والنوع الثاني: فَهْم الواجب في الواقع، وهو فَهْم حُكم الله الذي حكَم به في كتابه، أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يُطَبق أحدهما على الآخر."

بكر وعمر قادة في الوزارة، وعثمان وعليٌّ قادة في السفارة، فنحترم خصوصية كلِّ فرد، ولكن نعمل وفق منهج الجماعة الواحدة، فنزاوج بين النظريتين الفردية والجماعية، وهذا يؤكِّده ما صحَّ عنه صلى الله عليه وسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: «مثَلُ القائمِ على حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا؛ ولم نُؤْذِ مَن فوقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»؛ فلا غنًى لبعضنا عن بعض، فالثلاثة أصحاب الغار الذين لجؤوا إليه بسبب المطر، فأغلقتْ عليهم صخرةٌ بابَ الغار، كما ورد في الأثر الصحيح، فإنهم سألوا جميعًا ربَّهم الفرجَ، ولو اكتفى واحد منهم بالدعاء لما نجوا، بل لو دعا اثنان دون الثالث لما تحقَّق لهم الخَلاص، لكن مشاركة الجميع بالدعاء، وكل فيما يخصُّه، حقَّق لهم المرادَ، وفتح لهم باب الغار.

وإذا انتقلنا إلى مراحل تاريخية أخرى نقف على نماذج كثيرة جداً من الدعوات التي اتصفت بصفة الوسطية ومنهج الاعتدال، وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى أن هناك من جمع جهود العلماء في الدفاع عن هدي النبوة والصحابة دعوة ومنهجاً، ونحيل في هذا الباب إلى كتاب الدكتور محمد بن عبد الرحمن المغراوي (المصادر العلمية في الدفاع عن العقيدة السلفية)، حيث تتبع فيه هذه الجهود العلمية التي تمثل في حقيقتها منهجاً دعوياً وعلمياً يهتدي به من خلفهم، إلا أننا في المقابل لا ينبغي أن نغفل الحديث عن دعوات كان لها الأثر البالغ في الدفاع عن الحق وتبليغه للناس، وتمثل منهج السلف عقيدة ومسلكاً، هي دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية في القرن السابع والثامن الهجريين، ودعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في القرن الثالث عشر الهجري، ودعوة الأئمة المجتهدين أهل السنة في اليمن، وحري بنا أن نقف قليلاً مع هذه الدعوات كونها تشكل مفصلاً رئيساً من مفاصل دعوة أهل السنة والجماعة وكانت بحق دعوات وسطية لا إفراط فيها ولا تفريط، إلا أن الفارق بين هذه الدعوات أن دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ومجتهدي اليمن يغلب عليها الجانب العلمي، بينما دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب يغلب عليها الجانب الحركي.

خاتمة

ومما سبق يتبين أن الوسطيةُ منهجٌ رباني وضعه اللهُ – عزَّ وجلَّ – لهذه الأمَّةِ حتَّى تسيرَ عليه وتتبعَه، لتكون قدوةً صالحة للعالم من حولها؛ يهتدي برؤاها ويستفيد من خبراتِها، وإلى جانبِ ذلك فالوسطيةُ مطلبٌ واقعي، ومنهج وقائي يقي الأمةَ من خطر الغُلاة كما يحميها من المنحرفين والمفرطين، فالأمَّةُ تشهد خطرين لا يقلُّ أحدُهما خطورةً عن الآخر، فإذا كان الغلو آفةً تعمل الأمَّةُ على محاربتِها، فإنَّ الانحراف السُّلوكي والتفريط في الثَّوابت والمعتقدات آفةٌ أشدُّ؛ لأنَّه لم يظهر الغلو إلا كحركةٍ مضادة للتفلُّت والتفريط الذي عاشت فيه الأمَّةُ رِدْحًا من الزَّمن، والأمَّة في حاجةٍ ماسة إلى تبنِّي مشروع وسطي في كافَّةِ قطاعات حياتِها، فتحتاج إلى مشروعٍ وسطي في عملِها السِّياسي تتعامل مع الآخر من خلالِه دون تنازلٍ أو تفريط في حقوقِها، ودون انزواءٍ وبُعْدٍ عن

التَّعاملِ معه والتفاعل مع متغيراتِ المجتمع المعاصر والاستفادة من الخبرات البشرية المعاصرة، كما تحتاجُ إلى مشروع وسطي في عملها الاقتصادي فلا تغفل ضرورةَ أن تكونَ لها ذاتيتُها ورؤيتها المنبثقة من مبادئِ وقوانينِ دينِها؛ بحيث تعمل على تبني مشروعٍ اقتصادي إسلامي تقدِّمه للعالمِ ليستفيدَ من رؤى الإسلامِ في هذا المجال، وينطلق هذا المشروعُ من مبادئ الإسلام وتشريعاتِه، وإلى جانبِ ذلك لا تغفلُ أو تهملُ الاهتداءَ بالتَّجارِبِ الاقتصادية المعاصِرَة، كما تحتاجُ إلى مشروعٍ وسطي في المجالاتِ الاجتماعية تتبنَّى فيه معتقداتِها وترسِّخُ تقاليدَها وتؤصِّل مبادئَها وتُرسي قِيَمَها، ومع ذلك تحترمُ معتقداتِ الآخرين ولا تصادر رأيًا أو فكرًا يختلفُ معها، وإنَّما معيار التَّعامل ينبغي أن ينطلقَ من مبدأ :﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: 125]، وفوق هذا وذاك فهي في أمسِّ الحاجة إلى وسطية الفِكر، دون مغالاةٍ في رفض كلِّ وافد من الأفكار والتَّصورات التي ربَّما تتَّفق بشكلٍ أو بآخر مع تصورات الإسلام ومقاصد الشَّريعة، بل تأخذُ منها ما يصلح وتترك ما يضرُّ، وفي الوقتِ نفسِه لا تترك نفسَها عالةً على أفكار الآخرين وتصوراتِهم وتعتبرها المثلَ والنَّموذج الذي يجب أن يُحتذى، والأهمُّ من ذلك هو تفعيلُ هذا المنهجِ الوسطي في قطاعات الحياة المختلفة، فلا يكفي أنْ يظلَّ حبيسَ عقولِ المفكِّرين والمصلحين من هذه الأمَّة، بل ينبغي أن تتبناه القطاعاتُ الحاكمة والفاعلة، والتي عليها مسؤوليةُ اتخاذ القرار، وهكذا ينبغي أن يكونَ مبدأ الوسطية مبدأً فاعلاً في كلِّ قطاعات الحياة، إذا أرادتِ الأمَّةُ أن تخرجَ من هذه الهُوَّةِ وتتجاوزَ هذا الظَّرفَ المؤلِم الذي تعيشُه.